سقوط المنجل..!

في ٢٧/ ١٠/ ١٩١٧م قامت الثورة على القيصرية الروسية التي كانت تمثل الإقطاع والاستبداد، وقد عبر عن هذا الاستبـداد ليوتولستوي في روايته الشهيرة أهوال الاستبداد كما عبـر عنه آخرون في روايات أخرى تجد منهـا رواية الدكتور جيفاكـو التي نال عليها كـاتبها جائزة نوبل، ولكنـه منع منها وصودرت الـرواية لولا أن المؤلف قـد اتفق مع ناشر إيطالـي يترجمها إلى الإيطالية وينشـرها في العالم الغربي.

ومنذ ذلك التـاريخ / أي منذ أربع وسبعين سنة، والعـالم يعيش الشعارات تلو الشعارات التي داعبت العواطف، في هذا الوقت ثبت أن رافعي الشعارات لم يكونوا يعيشونهـا بدءًا بلينين منظِّر الشيوعية الروسيـة وستالين الذي عاد إلى سيرة الاستبـداد، ولكن هذه المرة بـاسم الشعوب، ثم مـرورًا بالزعمـاء الروس الإقطاعيين مثل بريجنيف ومن تبعه من القادة السريعين في التحول عن كرسي القيادة.

ثم جاء ميخائيل جورباتشـوف وقلب ظهر المجن للشيوعية والشيوعيين في تنظيره الجديد الـذي ضمنه كتابه «البروستريكا» قوض فيـه الشيوعية إلى درجة عجيبة برزت في تدمير كل ما يذكر بالشيوعية كالتماثيل المنصوبة على الساحة في المدن والقرى السوفيتية، ويأتي هذا التدمير باحتفال شعبي يوحي للمتابع من بعـد أن هذه الأمـة قد عـاشت فترة من خـداع الشعارات اقتنعت فيهـا بأن العيش مع البديل/ أي بديل أرحم من العيش مع الشعارات.

فتفكك الاتحـاد السـوفيتي واستقلت جمهـوريـاتـه، وتسـارعت إلى الأمم المتحدة تطلب العضوية المستقلة، وجرت انتخابات وعين رؤساء وحكومات

واختيرت أعـلام، وستظهر العملة وكل مقومـات الدولة المستقلة، وجـاء هذا كله تقـريبًا وبخطـوات عملية في سنـة واحدة فقط ١٩٩١م، وفي هـذه السنة فقط تهدم البناء الذي استمر العمل عليه أربعة وسبعين عامًا في السلطة وأكثر منها في محاولات الوصول إلى السلطة.

وفي رأس السنـة الميلاديـة الجديـدة ١٩٩٢م سينـزل العلم الأحمر الـذي يحمل المنجل والمطرقة إشـارة إلى المحلية والفلاحة والعمل والكـدح وغيرها من مصطلحات يكثر ترددها في المعسكر الشرقي الذي كان. ومع زوال العلم الأحمر يتخلص شعـب من الحمرة إلى الأبـد، ولا يستغرب متابع مـن بعد أن يكون للناس هناك موقف من اللـون الأحمر، إذ إنهم سيستمرون عائشين تحت تأثير الشعارات حتى مع زوال زمن الشعارات في بلد الشعارات.

ومع أنهم حاولـوا طوال السنين الماضيـة نزع سلطان الـدين من النفوس في ثورة ضـد استخدام الـدين في تلبية المصـالح الشخصية لأصحـاب الكهنوت ممن يقربونه، إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من فكرة العبودية التي جاءت بها الأديان كلها. ففي الوقت الذي منعوا فيه الانحنـاء لله تعالى نجدهم قد فرضوه للتماثيل التي نصبـوها في الساحات العـامة. ويقال إنه يفـرض على المارين من رجال ونساء على هذه التماثيل أن ينحنـوا لها ويخلع الرجال، قبعاتهم رمزًا للاحتـرام والتقديس، ومن الطـريف أن أجمل ما في القـرية هـذا التمثال، إذ يعمـد الحزب الشيـوعي إلى تسخير من يقـوم على سدانـة التمثال؛ وتنظيفـه وتلميعه وصيانتـه من فضلات الطيور! ويكتب السادن تقـارير عن الأشخاص الذين يمـرون من تحته ولا ينحنـون. هذا التمثـال المعبر عن قـائد الثورة لينين أصبح اليوم نهبًا للصهـر إذا كان من النحاس للإفادة من مـادته في صنع أشياء تنفع البشـر، أمـا إذا كـان التمثال من الطين أو الفخـار أو الجبس فقـد سـوي بالأرض في مشاهد درامية عجيبة.

التلاميذ الصغار...

وقد خلف النظام الشيوعي تلاميذ صغارًا له في الشرق والغرب، هؤلاء التلاميذ قلقون الآن على مصيرهم، والخوف على التلاميذ الصغار أن يتحولوا طعمًا للوحوش الكاسرة أو للنار الدنيوية يرمون بها. وهذا ليس بعيدًا من التصور، فقد زال عنهم المعين، وألغيت المساعدات وسحبت عنهم الجيوش والعساكر، وتخلت عنهم مخابرات الكي جي بي التي كانت تحميهم من شعوبهم، فلم تقدر الآن على الاستمرار في حراستهم، فيلتفتون يمنة ويسرة وهم يشعرون أن الطعنة تصلهم من أقرب المقربين إليهم.

لقد تخلى الأستاذ الكبير عن تلاميذه الصغار قبل أن يمنحهم الإجازة في حمل العلم، وقبل أن يحتفلوا بالتخرج، وقبل أن يتسلموا الشهادات وجوائز التفوق. وأول المتفوقين الرجل العنيد فيدل كاسترو الذي يبدو أنه يحزم حقائبه ويجلس في بيت على الشاطئ ومعه رزمة من سجائر الهافانا الفاخرة! ينهي معها بقية حياته غير مأسوف عليه، ثم يتوالى التلاميذ، منهم من هم على السلطة، ومنهم من هم يحلمون بها، ولكنه حلم متبدد، ويذكر من هؤلاء نجيب الله في أفغانستان وهو لا يقل عنادًا عن رفيقه كاسترو، ولكنه ليس أعرق منه في الشيوعية، إلا أنه قد انتهى من حزم حقائبه، ولا أعلم فقد يكون قد فر الآن عند نشر هذه الحروف، فالأحداث تتلاحق في المعسكر الشرقي إلى درجة أعيت وكالات الأنباء والمراسلين، ومع هذا فنجيب الله يحاول الآن أن يستغل العاطفة الدينية لدى الأفغان ليدعي أنه مسلم صادق يصلي ويصوم ويطبق الإسلام، ولكنه يبيع هذا على من عرفوه فلن يقبلوا منه إلا أن يروه ناكس الرأس منكوس السلطان.

وغير هذين من التلاميذ الذين يستغرب المرء بحق كيف تحولوا إلى تلاميذ، وما الذي دفعهم إلى هذا التحول السطحي بحيث يكون هناك اندفاع

قوي نحو الشيوعية بحيث يكونون شيوعيين أكثر من الشيوعيين أنفسهم. وهذا حال بعض التلاميذ حيث يسيئون إلى أساتذتهم بتشويه علمهم الذي تلقوه على أيديهم فيعينون على تقويض هذا العلم ونزعه من جذوره إن كانت له جذور.

ولا أظن أن اللوم كله يقع على هؤلاء التلاميذ الصغار، وإن كانوا يتحملون عبئًا كبيرًا من اللوم، ولكنهم فقدوا الثقة في البديل الذي كان أصلاً يتماشى مع الفطرة ويراعي الإنسان، وهذا واضح في التلاعب بالدين في الغرب بخاصة عندما سيطر عليه فئة من الناس اتخذوه وسيلة للعيش الرغيد فألغوا منه ما يتعارض مع منافعهم الشخصية، وبدلّوا فيه وغيروا حتى أصبح مسخًا غير مقبول لفطرة البشر، رغم المحاولات المستمرة في مجالات الوعظ واتخاذ الوسائل الخادعة التي لا تتعدى السباحة في محيط من المثاليات.

ولم يحصل هذا تماما في المجتمع المسلم، فالدين الإسلامي غير قابل للتبديل والتحريف والتغيير، ولكن الناس ابتعدوا عنه ـ ليس جميعًا ـ واكتفوا منه بالعلاقة المباشرة عند من أصروا عليه في بعض المجتمعات حتى أصبح الدين ـ في بعض المجتمعات ـ مجرد طقوس، تحكم شيئًا من العلاقة بين العبد وربه ولا تحكم العلاقة كلها. ومع غياب الوعي والوضوح والصحة في الدين، ومع دخول أفكار أخرى على المجتمعات، لجأ بعض المتعاطفين مع هذه الأفكار إلى تبنيها وبخاصة أنها أتاحت لهم الصعود إلى الكراسي والبقاء فيها لمدة. والملحوظ أن الانقلاب على هؤلاء في الغالب إنما يأتي من أترابهم الذين لا يقدمون بديلا لهذه الأفكار، وإنما يلحظون خللاً في تطبيقها.

ومن هنا تكمن المسؤولية على العالمين من المسلمين في تقديمهم للإسلام تقديما واضحا خاليًا من الشوائب التي علقت به في بعض المجتمعات، فطغت على نصاعته وصفائه وقدمته للناس بصورة درويشية هي

أقرب إلى الهلوسة منها إلى قابلية التطبيق الفعلي على جميع شؤون الحياة .

وإذا ما وضح هـذا في الأذهان وجدت التـائبين يكثرون والعـائدين يزدادون وبخـاصة في الـوقت الذي يتـوالى فيه سقـوط الشعارات والتنظيـرات المثاليـة البعيدة عن التطبيق على أرض الواقع .

ومع سقوط المنجل تتضاعف مسؤولية المسلمين تجاه إخوانهم في الاتحاد السوفيتي ـ سابقًـا ـ فلم يعـد هناك عـذر، وفتحت الأبواب على مصـراعيها، وتكـررت الـدعـوات لـلإسهـام في إيضـاح البـديل الطيـب، وسيأتي من الجمهوريات الإسلامية قيادات إلى البلاد الإسـلامية بما فيها المملكة العربية السعـودية متلمسين الـدعم المعنـوي أولا ثم العلمي ثـانيـا من خلال إرسـال الـدعاة المخلصين الـواعين والعالمين الفـاقهين، فـالتغيير يحتـاج إلى وقت طويل، ولكنـه لا يحتمل التأخير بحـال من الأحوال، ويبـدو أن هناك تـوجهًا نحو البدء في التغيير، هـذا التوجه عندما يدعم الـدعم المناسب سيؤتي ثماره ما خلصت النيات وصدقت العزائم .

ولعل سقوط المنجل يوحي بأشياء لأولئـك الذين يصرون على التمسك بما يتنافى مع فطرة البشـر، فينقادون طائعين إلى ما يتماشى مع فطرة البشـر عندما يتمكن أولئك الأمناء على تقـديم هذه الأفكـار الفطرية تقـديمًا هـادئًا حكيمًا متأنيًا يسعى إلى الـوصول بالمجتمعات كلهـا إلى الأفضل دون التشبث بوضع زمن محدد للوصـول إلى الأفضل، وفق الله العالمين على تصحيح المسار في المجتمعات الإسلامية سعيًا وراء التثبيت وكان الله في عون الجميع .